اليوم العالمي للغة العربية

٢١ فبراير من كل عام هو اليوم العالمي للغة العربية، ومن الأهمية بمكان المشاركة الجادة في إحياء هذا اليوم من قبل حماة اللغة العربية لإعادة الاعتبار إلى لغة الضاد عند قومها والناطقين بها في زمن صعب تتعرض فيه العروبة أساساً كانتماء لهزات صعبة وطارئة في الدساتير الجديدة لعدد من الدول العربية وقتها العراق والسودان.

والعربية والعروبة صنوان متكاملان، والخوف كل الخوف من تدهور مكانة اللغة العربية كمصير لغات سادت ثم بادت أو تشرذمت، ومنها اللغة اللاتينية التي صارت أربع لغات: (الأسبانية، والبرتغالية، والفرنسية، والايطالية)، أو اللغة الجرمانية التي صارت ثلاث لغات: (الإنجليزية، والألمانية، والنرويجية)، أو اللغة السلافية التي صارت ثلاث لغات: (الروسية، واليوجسلافية، والتشيكية) .. إلخ.

وفي سباق الدعوة إلى إحياء واسع وفعال لليوم العالمي للغة الأم؛ من الأهمية بمكان التنسيق بين مجمعنا اللغوي العتيق ومختلف اللجان والجمعيات التي تشكلت في السنوات الأخيرة وتقوم بدور بارز دفاعا عن اللغة العربية، ومنها – على سبيل المثال–

لجنة النهوض باللغة العربية، وتتبع رابطة الجامعات الإسلامية بالقاهرة، وجمعية لسان العرب وجمعية تعريب العلوم وهما تحت رعاية الجامعة العربية، ولجنة حماة اللغة العربية.

وقد ظهر أخيرا الميثاق العربي المشترك لرعاية اللغة العربية الذي أصدرته جمعية لسان العرب في منتصف نوفمبر ١٩٩٨م وهو مكون من نقاط سبع تستحق الإفاضة والاستزادة لتكون سبعة أبواب أو أكثر.

ولعل كل المجامع والاتحادات واللجان تجتمع لصياغة ميثاق موسع يتضمن ميثاق شرف للحفاظ على لغتنا الأم، ولعل الصحافة وكل وسائل الإعلام تلعب دورا رئيسيا في الحفاظ على اللغة كوسيلة للتواصل والترويج لعمل حماة اللغة.

إن اللغة العربية هي لغة ٢٢ عضوا من الدول الأعضاء في هيئة (اليونسكو)، وهي اللغة الرسمية التي يتحدث بها ما يزيد على ٤٢٢ مليون عربي، ويستخدمها أكثر من مليار ونصف المليار مسلم، فهمي جديرة بأن يحتفي ويحتفل بها، وهي كلغة القرآن لا يكفيها الاحتفال بها في يوم واحد، ولكن كل يوم نحافظ فيه على اللغة ونحب فيه لغتنا والعلوم المتعلقة بها هو الاحتفال الحقيقي.

ولغتنا العربية لغة نامية متطورة تفي بكل متطلبات العصر، وكم من دعاوى أرادت النيل من الفصحى واستبدالها بالعامية، لكنها ماتت قبل أن تولد، وكم من حناجر بحت ولم نجد لها أي صدى، ومازالت لغتنا باقية قوية تزاحم اللغات.

إن اللغة العربية أكبر عامل من العوامل المساعدة على وحدة الأمة العربية والإسلامية وأمنها القومي وتقدمها وازدهارها، وآمال الأمة العربية الآن منعقدة على تعريب العلوم والمعارف الإنسانية حتى تنطلق منها إلى الإضافة والتجديد والابتكار لمواكبة هذا السباق العلمي السريع.

والعالم من حولنا لا يعترف إلا بمن كان نظيرا له، ولا بتعاون إلا مع من كان متفوقا عليه أو مساويا له، والواجب علينا نحو لغتنا أن تهتم بها وأن نحافظ عليها كما يهتم ويحافظ غيرنا على لغاتهم، وليت القوانين التي تعاقب من يفرط في لغة يتم تفعيلها.

لقد احتفلت اليونسكو باليوم العالمي للغة العربية، وأعلنت (إيرينا يوكوفا) مديرة اليونسكو أن اللغة العربية تحمل هويات وقيم حوالي ٤٢٢ مليون مواطن عربي ومليار ونصف مسلم يستخدمونها في صلواتهم، فهي محرك لتعزيز القيم المشتركة.

وبالرغم من قرار الأمم المتحدة بتحديد يوم عالمي للاحتفاء باللغة العربية، فإنها محاصرة داخل الوطن العربي ذاته، وهناك عاملان يؤثران فيها قوة وضعفا وهما: التعليم ووسائل الإعلام، فبعض الدول العربية مازالت اللغات الأجنبية هي لغة التعليم الأساسية في نظامها التعليمي، وتدرس العربية كلغة فقط، بينما في دول أخرى يهتم القادرون بإجادة لغة أجنبية أو أكثر لتكون مفتاحا لوظيفة تشترط فيمن يشغلها إجادة لغة أجنبية دون النظر إلى إجادته للغة الأم، وهذا هو حالنا في مصر.

أما وسائل الإعلام فبدلا من أن تلعب دورا حيويا في تقويتها تشارك في إضعافها باستخدام العامية واللهجات المحلية، في حين أنها تستطيع استخدام العربية المبسطة التي تصل إلى المستمع أو المشاهد بسهولة ويسر، والغريب أن وجود تقنيات حديثة كالإنترنت بدلا من أن يكون سببا فى انتشار اللغة العربية كان سببا في تراجعها، حيث يشير تقرير عن اللغات المستخدمة فى محتوى الإنترنت إلى تناقص استخدام اللغة العربية من ١,١٪ عام ٢٠١٢ إلى ٠,٩٪ في نهاية ٢٠١٣ ناهيك عن كمية الأخطاء اللغوية و الإملائية التي يقع فيها مستخدموا العربية على الإنترنت، وكتابة البعض لها بحروف لاتينية وهو ما يهددها في الصميم.

وإذا كانت مصر والعراق وسوريا قد أنشات مجامع اللغة العربية للحفاظ عليها والتعبير عن مستحدثات اللغة وفتح الباب للتعريب فيجب أن يكون هناك إلزام للمؤسسات والهيئات التعليمية والحكومية بالتعامل باللغة العربية، وعمل برامج إعلامية وتعليمية لتفعيل استخدامها وتنميتها وتحديث مناهجها وتوسيع نطاق نشرها باعتبار أن لغتنا تعبر عن ثقافتنا وهويتنا.

وهناك قصة طريفة تتصل بتبسيط قواعد اللغة؛ فقد كان هناك حاكم من المماليك الذين (تسلطنوا) على مختلف أقطار العالم العربي في العصر العثماني وهو (داوود باشا ١٤٧٤ – ١٨٣١) والذي حكم العراق من سنة ١٨١٧ حتى وفاته ١٨٣١، أي حوإلى أربع عشرة سنة. وتاريخ داود باشا في جملته كان تاريخا مليئا بالصفحات المشرقة والمؤرّخون ينظرون إلى هذا الوالي المملوكي على العراق على أنه أفضل من تولى حكم العراق في العصر العثماني،

وأن عصره كان عصر انتقال من المجتمع التقليدي القديم الجامد إلى أبواب العصر الحديث الذي يتطلع إلى النهضة والتقدم والاتصال بما حدث في أوروبا من تطورات.

وهناك موقف شهير لداود باشا رأى فيه البعض مسًّا من الجنون؛ فقد كان من بين أحلام هذا الحاكم أن يقوم علماء عصره بتطوير اللغة العربية، وتبسيط قواعد النحو فيها حتى تكون لغة سهلة وقابلة للاستخدام، وحتى لا تقف قواعدها الصعبة حاجزا بين الناس وبين تعلمها بسرعة ودون تعقيد، وهنا وقعت القصة الطريفة التي اعتبرها البعض تصرفا مجنونا من داود باشا، فقط أراد أن يتقن العربية ويتفنن في أساليبها ويقف على أسرارها ونوادرها، فأحضر أحد اللغويين الكبار في عصره، وأخذ يتعلم على يديه، وذات مرة عرض اللغوي الكبير على داود باشا بعض الأمثلة القديمة ومنها (ضرب زيدا عمرا)، وسأل الوالي شيخه – على سبيل المداعبة – عن الجناية التي جناها عمرو ليستحق أن يضربه زيد كل يوم، وقد ضحك العالم اللغوي من السؤال وقال للوالي: ليس هناك يامولاي ضارب ولا مضروب، ولكنه أحد الأمثلة التي اعتاد علماء النحو أن يأتوا بها لتقريب القواعد النحوية والصرفية من أذهان الطلاب، ولكن الوإلى لم يعجبه الجواب، وقال لابد أن هناك إجابة أفضل من هذه، فسكت العالم اللغوي ولم يجد ما يقوله أمام هذه المسألة التافهة، ولكن الوالي اعتبر سكوت العالم إهانة له، فأمر بسجنه، ثم فعل ذلك مع عدد كبير من علماء النحو الذين لم يجدوا جوابا أفضل من جواب العالم النحوي، وكان مصيرهم جميعا السجن، ثم أرسل

الوإلى رجال مخابراته للبحث في أنحاء العراق عن عالم يستطيع أن يقدم للوإلى جوابا مقنعا عن سؤله، حتى تم أخيرا العثور على عالم كبير قال: إن كلمة (عمرو) فيها واو زائدة سرقها من كلمة (داود) التي بواوين، وقد رأى النحاة أن عمرا ارتكب جريمة السرقة من اسم أخر، فاستحق الضرب من زيد ومن غير زيد حتى يتأدب ولا يعود للسرقة مرة آخر، وقد أعجب الوالي هذا التفسير الذكي المنافق، فأراد أن يكافئ الشيخ فقال له: اطلب ما تشاء فأمرك مجاب، فطلب الشيخ إطلاق سراح زملائه وإعادة صرف رواتبهم، فوافق الوالي على ذلك، ولكنه اشترط على هؤلاء العلماء أن يصلحوا طريقة تعليمهم للغة العربية، وأن يضعوا منهجا جديدا فيه تيسير على الناس حتى تصبح اللغة العربية سهلة يفهمها الجميع ويكتبونها ويتحدثون بها دون تعقيد.

وقد كانت هذه القصة التاريخية ثورة من جانب هذا الوالي ضد علماء عصره الذين كانوا يحرصون على جعل العلم صعبا معقدا حتى لا يصل إلى عامة الشعب، وقد كانت هذه النظرية سببا في تدهور اللغة العربية في ذلك العصر وهو أوائل القرن التاسع عشر.

لقد خصصت هيئة الأمم المتحدة يوما كل عام للاحتفال باللغة العربية باسم (اليوم العالمي للغة العربية)، وهو اليوم الذي أقرت فيه المنظمة الدولية اللغة العربية لغة رسمية سادسة إلى جانب الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والروسية والصينية، وذلك تقديرا لمكانتها واعترافا بفضلها وأهميتها.

ويمر هذا اليوم علينا نحن العرب أصحاب هذه اللغة دون أن ندري به أو ننتبه إليه كعادتنا، ولم نسمع ولم نر أي نوع من الاحتفالات بهذه اللغة التي نتحدث عاميتها، ونقرأ ونكتب فصحاها، ولم تقم مؤسسة تعليمية ولا ثقافية ولا قناة تلفزيونية بالإعلان عن أي نوع من الاحتفال؛ لا مسابقة لغوية، ولا عرض لإبداع لغوي، ولا إصدار لكتاب جديد عنها، ولا أى شئ من هذا القبيل.

وما كان ينبغي أن يحدث ذلك لولا أننا مع بالغ الأسف والأسى أهملنا لغتنا ابتداء من التعليم في المدارس والجامعات وانتهاء بوسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة، فهناك تَدَن في مستوى تعليم هذه اللغة، والكل يتسابق الآن في تعليم الأطفال لغة أجنبية قبل لغتهم العربية بحجة أن سوق العمل تحتاج إلى لغات أجنبية، علما بأن كل الدول المتقدمة في جميع أنحاء العالم تحرص على أن يقتصر تعليم اللغة الأم لأطفالها حتى سن التاسعة، وكثير من مثقفينا – للأسف الشديد – فهموا أن الانفتاح على الآخر واكتساب لغة جديدة يعني ذوبان اللغة الأم، فصاروا يتبارون في استخدام عبارات أجنبية أثناء حديثهم في إشارة إلى أن عربيتنا غير قادرة على حمل الأفكار وعلى التعبير عن المفاهيم.

لغتنا العربية – إذن – في خطر، واليوم العالمي لها فرصة لمساءلة النفس وتأمل واقع اللغة، ومحاولة تحديد أسباب العقوق تجاهها من بعض أبنائها، ومزاحمة اللغات الأجنبية لها في عقر دارها، وطغيان العامية على ألسنة النخبة من أبنائها.

علينا بمناسبة هذا اليوم العالمي أن نعمل على تعزيز مكانة لغتنا العربية التي هي هويتنا، وأن نكون هي اللغة الأم في العالم العربي لمواجهة العولمة التي تهدد الهويات والخصوصيات، وأن تحتل مكانها على شبكة (الإنترنت) شبه الغائبة عنها، وأن تنظم لها المسابقات، وتخصص للفائزين بها الجوائز، فهذا أقل ما نقدمه إلى لغة الضاد، لغة القرآن الكريم.

حينما تشرق شمس اليوم العالمي للغة العربية تبعث في النفس بهجة وسروا وإحساسا بالزهو والخيلاء، وذلك لاحتفاء العالم بلغتنا العربية، تلك اللغة التي تعد أساسا لفهم ديننا فهما صحيحا، فلا يمكن أن نستقي أحكام هذا الدين من الكتاب والسنة الإ بفهم أسرار اللغة العربية التي بهرت العالم، وبالطبع فإن تعبيرات القرآن الكريم هي نفسها اللغة العربية لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين.

ولا شك أن الذين احتفلوا باليوم العالمي للغة العربية ما فعلوا ذلك إلا لأنهم أدركوا ما فيها من دقة التعبير وجمال الأسلوب وروعة البيان.

وقد قررت هيئة (اليونسكو) عام ١٩٩٩ اعتبار يوم ٢١ فبراير من كل عام يوما عالميا للغة الأم يهدف إلى حماية مستقبل اللغات الأصلية المهددة بالانقراض في أفريقيا وآسيا وأوروبا، حيث ستواجه هذه اللغات في سنوات العولمة القادمة تهديدا بالتهميش والتدهور سيؤدي إلى انقراضها أمام الغزو الساحق للإنجليزية عبر الأقمار الصناعية وأجهزة الحاسبات والاتصالات وشبكة المعلومات.